بسم الله الرحمن الرحيم

الاغنية التونسية

الاغنية التونسية يمكن أن تكون موشحا مثل" كللي ياسحب" لابن سنـــاء الملك الـذي اشـترك في تلحينـه الشيخان : رشـيد بـن جعفـر ، وخميس الترنان في مقام راست الذيل " أو: قاضي العشق قد كـــواه الصدود " مجهـول المؤلـف ومـن تلحـين الشـيخ أحـمد الـوافي في مقـام الاصبعين المقابل للحجاز. ويمكن أن تكون زجلا مثـل: " دير المـدام في الكأس" في مقام رمل الما يه لابن السراج " او آه على ما فات " الذي يقـال انه آخر ما تغنى به الاندلسيون عنـد نزوحهـم مـن غـرناطـة وهـو في مقـام راستّ الذيل ومن خصائص الموشحات والازجال في التراث التونسـي انـه تلحن جميع مقاطعها في تنويع مقامي بديع مع الرجوع الى المقام الاصلي في الاقفال على خلاف الموشحات الاندلسية والشـرقية الـتي لم يلحـن منهـا سوى مقطع واحد.

هـذا بالنسـبة للاغـاني التقليديـة الكلاسـيكية ، امـا الاغانـي الشعبية فانها انواع:

1﴾ النوع الاول: ما كانت جميع مقاطعه او ابياته على لحن موحد مثل: " با لله وادعو ني يا لبنات " في مقام " محير السيكاه " يقرب من العشاق المصري و" نا والجمال فريدة " في مقام العرضاوي ﴿ عقد خماسي من الراست ﴾ ، " وياما اقو انى" ﴿ بين النها وند والنواثر ﴾ ونظرا لما يحدثه عدم تنو يع اللحن من روتينية فقد عمدت الى اضافة جملة لحنية لكل منها في الاربعينات اندمجت فيها واصبح الكثيرون يعتقدون انها منها .

2﴾ النوع الثاني بدأ فيه نوع من التطور وذلك بتغيير جزئي في بداية الابيات عما هو عليه فى المذهب سواء في البداية مثلما في اغنيتي " با لله يا أحمد يا خويا " او " ساق نجعك ساق" في مقام المزموم ، او في آخر البيت في اغنيتى " في الغربة فنالي عمري راح" ﴿ في مقام المحير سكاه﴾.

3﴾ النوع الثالث من اغانينا الشعبية هو الذي تتغير ابياته عن لحن المذهب مثل أغنية " عرضونى زوز صبايا " ﴿ في مقام المزموم ﴾ واغنية " شرق غدا بالزين " ، في مقام رأست الذيل و قد لحنت ابياتها في عقد من مقام المخير عراق ﴿ أو راست ﴾ على النوى وهو من اجزاء سلم مقام راست الذيل

ومن اغاني الفوندو أيضا القطعة التى عنوانها " نميت نم المخياليل عديت الايام طالو" في مقام راست الذيل وهي في مستوى تلحينهاارفع بكثير من العديد من موشحات التراث التونسي والاندلسي.

ومن خلال هذه الاغاني الشعبية نستطيع القول بان الاغنية التونسية هي التي كانت لغتها العربية الفصحى او العامية التونسية ريفية كانت او حضرية مع ارتكاز تلحينهاعلى مقامات وايقاعات تونسية بحته..

وابتداء من العشرينات دخلت السوق الاغاني الليبية بواسطة الفنانين الليبيين اللاجئين من الاحتلال الايطالي الغاشم ودخلت اثرها اسطوانات الاغاني الشرقية والمصرية منها بالخصوص واصبحت لنافرق تغني ادوار محمد عثمان وعبده الحمولي وموالات عبد الحي حلمي وقصائد المنيلاوى وسلامه حجازى وابي العلاء محمد الى ادوار وطقاطيق السيد الدرويش.

ومع افتتاح سوق الاسطوانات في الثلاثينات برزت عدة اغاني شعبية بصوت "ايسيرن العفريت " الذي سماه الفنان المتعهد الجزائرى محيي الدين باش تارزى ، الشيخ العفريت " لتسهيل بيع اسطواناته بالجزائر وهذا ماتم ، كما قام بعض الفنانين اليهود التونسيين بانتاج بعض الاغاني كانت في مجملها ضعيفة التاليف والتلحين . وهذا ما دعا ثلة من المثقفين التونسيين يتقدمهم شيخ المدينه المرحوم مصطفى صفر

الى تاسيس جمعية للمحافظة على الفن التونسي سنة 1934 اسموها " الرشيديه " نسبة الى الملك المرحوم محمد الرشيد باى الذى كان اديبا وفنانا ويرجع اليه الفضل في جمع التراث التونسي والاندلسي واثرائه بانتاج من البشارف والسماعيات والموشحات التونسية في بداية القرن الثامن عشر.

وقد كان من اول اهتمامات هذه الجمعية جمع التراث الغنائي التقليدي والشعبي وتقديمه للجمهور ثم العناية بانتاج مجموعة من الاغاني والقصائد في مستوى ادبي وفني طيب واسست لذلك لجنة ادبية ضمت خيرة ادباء تونس برئاسة شيخ الادباء محمد العربي الكبادى ولجنة فنية برئاسة الشيخ محمد الاصرم الذى خلفه فيمابعد الشيخ خميس الترنان .

وقامت هاتان اللجنتان بمراجعة المالوف اى الغناء التونسي الاندلسي ثم فسحت المجال للانتاج الجديد على المقامات والايقاعات التونسية. وفتحت مباراة في تلحين اول اغنية الفهاالمرحوم علي الدوعاجي عنوانها" يالايمي بزيني..من صاب عينك عيني " لحنها الشيخ الترنان وامتازت بغنائها المرحومه " شافية رشدي " التى كانت المطربة الوحيدة للجمعية الرشيديه فكانت هذه الاغنية الملحنة سنة 1934 في مقام السيكاه مع قفلة راست على نمط اغنية " غني لي شويه " التى لحنها فيما بعد الشيخ زكرياء احمد لام كلثوم وبذلك فتح باب الانتاج على مصراعيه وقد كان مرتكزا على الهواية بحيث لم يتقاض لاالمؤلف ولاالملحن اى مقابل ..

فاشترك الملحنان الترنان والتريكي في انتاج عدد هام من القصائد وشاركهم الشاذلي مفتاح و قدور الصرارفي وصالح المهدى في انتاج المعزوفات على الانماط التقليديه كما شاركهم الملحنون الهادى الجويني والحبيب العامرى ومحمد النابلى في تلحين الاغاني وانفرد الترنان بتلحين نوبة الخضراء في مقام النهاوند، والمهدى بتلحين نوبات : العجم عشيران والزنكولاه ومحير العراق ومحير السيكاه.

واجتهد الاستاذان محمد التريكي وخميس الترنان سنى 1935 في تطوير الاغنية فجعلا ابياتها تتنوع في التلحين وفي المقامات وقد برز ذلك في اغنية الترنان " اللي كواتونارمحبه " من تاليف الشيخ بلحسن بن شعبان وهي على وزن البطايحي المستعمل في المالوف ﴿ الغناء التقليدي﴾ وفي اغنية التريكي من تأليف محمود بورقيبة وهي على وزن السماعي الثقيل جاعلا بيتها الاخير على وزن الدارج على غرار معزوفات السماعي.

وقد تناول الملحنون في اغانيهم بالرشيدية اغلب المقامات التونسية والشرقية بطرق جديرة بالتقدير والاكبار كانت اساسا لدراسة تلكم المقامات باعتبارها من ابرز شواهدها

وفي سنة1938 بعثت الاذاعة رسميا وقد ارغم مدير قسمها العربي الاستاذ عثمان الكعاك ومديرها الفني الاستاذ مصطفى بوشوشه الفنانين الراغبين في المشاركة في الاذاعة على الانتاج الجديد اوتقديم التراث الشعبي

والتقليدية ، فكانت المطربة فضيلة خيتمي تلحن لنفسها من تأليف الشيخ احمد خير الدين وبرز المطرب علي الرياحي بانتاجه بعد ما كان يقلد المطربة المصرية منيرة المهدية ، وظهر من الفنانين الشعبيين محمد النو ري والمحجوب شقرون كما ظهر الصادق ثريا باغانيه ، ويوسف التميمي باغاني اسماعيل الفرجاني وبرزت فتحية خيري بانتاج السيد شطا وحسيبة رشدي بانتاج محمد التريكي وتربعت شافيه على عرش الرشيدية ، وكان محمد الجمو سي ياتي من حين لآخر من باريس التي كان يقيم بها باغان من تاليفه وتلحينه كما برز الهادي الجويني باغان على نمط الفلامنكو

وفي سنة 1944 تولى الاستاذ نورالدين بن محمود ادارة القسم العربي للاذاعة فنظم مباراة في انتاج اغان تتناول النهوض بالصناعات التقليدية اشترك فيهاابرز المؤلفين والملحنين – و قد الف لي آنذاك ﴿ خارج المباراة ﴾ المناضل المرحوم العيد الجباري القطعة الموالية

بالصنعة الامة تتقدم وتنال المقصود العالي

واللي مايعرفش آش يخدم جيبه ديمه يبقى خالي

فكانت أول اغنية الحنها بعد ماقطعت شوطا في تلحين الاناشيد الكشفية والشبابية ، واستمر الانتاج في الاذاعة ليبث مباشرة اسبوعيا من مختلف الفرق وذلك علاوة عن الانتاج السنوي الذي يقع التدرب عليه ا ثناء شهري رجب وشعبان ليقدمه الفنانون في حفلات شهر رمضان المعظم الذي ينظم فيه اهم مهرجان موسيقي تقدم فيه عروض يومية

بابرز القاعات تضمن التمكن الفني الممتـاز وتجـاوب الجمهورمـع الاغـاني الجديده التى تبث اذاعيا وتسجل على اسطوانات فيمابعد.

واستمر الحال الى أن اسست أول فرقـة للاذاعـة سنة1946 فكـان دورهـا يشكر في النهوض بالاغنية واخرجنا حينئذ المطربة : صفية التى اتت من الشام وذلك باغان تبرز التقارب الفني التونسي الشـامية مثـل اغنيـة قـدور الصرارفي ﴿ ياسمره وحلـوه...يـالون القهـوة﴾ واغنيتنـا ﴿ يـاللى انـت روح الروح ﴾ من تاليف محمود بورقيبة .

وفي بداية الخمسينات اسسنا الفرقة الموسيقية لمدينة تونس وابرزنـا فيها اشهرالمطربين والمطربات باغان جديدة في مقامات تونسية وشـرقية وركزنا بالخصوص على القصائد والاغان التى تعتمد التنوع المقـامي وابرزنـا لذلك المطربة " عليه" التى سرعان مااحتلت المكانة المرموقه في الفن.

ومن الاحداث البارزة في الحقل الغنـائي ماقـام بـه الاسـتاذ الشـاذلي القليبي بوصفه مديرا للاذاعة بعد الاستقلال من اقـامة مباراة لانتاج اغان تكون كلماتهاومقاماتهاوايقاعاتهـا تونسـية صرفـة اعطيـت اسـم مهرجـان صليحـة التى اشتهرت بهذا النوع من الغنـاء وفـاز في المبـاراة الاولى الشـيخ خميس الترنان باغنية " ليعتني بشـد الهـوى يادوجـه" في مقـام العـراق التونسي المقابل للاصبهان المغربي الذى لم يتناوله غيره من الملحنين قبله وفاز في المباراة الثانية الفنان " الشاذلي انور" ثم توقف هذا المهرجان ليحل محلـه مهرجـان الاغنيـة في الثمانينـات بـدون اى شـرط يخـدم الشـخصية

الفنيـــــة التونسية ـ كما ان ادارة الاذاعة والتلفزة فقدت امكانية توجيه منشطي برامجها الذين اصبحوا يبثون الاغاني التافهة تاليفا وتلحينا واداء احيانا في حلقاتهم واقتصر نظر لجنة الاستماع بها على ماتبثه البرامج التى لايشرف عليهامنشطون ـ وبذلك تسربت عدوى انحدار مستوى الاغاني وكادت تقتصر عند الكثير ين على عدد قليل من المقامات وعلى مايوجد بآلة"السنتتزور" من ايقاعات مسجلة بـه الكترونيا ـ اماالكلمات فكلما خلت من المعاني كلما راجت وتكاثف بثها .

وامام هذه الظاهرة الخطيرة قامت القاهرة بتنظيـــم مهرجان سنوى في بداية شهر نوفمبـــر برعاية الدكتورة "رتيبه الحفني" تركز على القطع التى تبرز الاصالة الفنيـــة العربية والطرب الصحيح ـ الذى يصدق فيه قو ل الامام الغزالي حاثا على الاستمـــاع لمثل ذلك : من لم يحركه الربيع وازهاره والعود واوتاره فهو فاسد المزاج ليس لـه علاج.

وعلى كل العواصم العربية ان تسلك سبيل القاهرة وان تعطي الا ولوية في مهرجاناتها لطا بعها الخاص وذلك للمحافظة على شخصيتها الفنية من جهة ولاثراء الفن العربي ككل بحيث يصبح وكأنه باقـــة اجتمعت فيها زهور مختلف اريجها والوانها والاصل واحد..

والله الموفـــــــق

د. صـــالح المهـــــدي